شاعر الآلام ...

بقلم سعاد ابو شقرا

تلك ساعات هنيئة كنت أمني النفس بها منذ زمن بعيد ، ساعات كلها صفاء وخيال مجنح ، ينقلك الى الجوّ الموسيقي الرائع والالحان الشجية التي يعزفها باي نسج الألم اوتاره فارسل الانغام ترجمات للآهات ، وبعث الالحان صوراً للمآسي واصداء للأنين .

اجل هي ساعات هنيئة بحق ، فياضة بشتى الخلجات وبمختلف الصور الكئيبة ، تلك التي عشتها مع شاعر الالم والاحزان ، شاعر تونس الخضراء ومجدد حياة الادب فيها ، ابي القاسم الشابي .

اذكر ابا القاسم الشابي ، فاذكر معه اللحن الحزين الذي لم يتم !! وترتسم في خيالي لدى التفكير به لوحات رائعة الجمال للطبيعة الفتانة ، تحنو على الشاعر العاني ، وتنظر اليه بعين تفيض امومة وحدبا ! واذ اذكر ابا القاسم الشابي ، تملأ اذني انغام القيثار وآهات الاعواد ، وترانيم الطير وتغاريد الرعاة ، وهمسات النجوم واهازيج الانهار ، وكلها تسبّح الطبيعة وتحيي الغاب ممجدة في الحياة آلامها ، مكبرة في الشاعر وجومه ، مقدسة فيه احزانه وجراحه .

ابو القاسم الشابي شاعر عرفت مقطوعاته الحزينة سبيلها الى نفسي منذ زمن بعيد ، يوم كنت تلميذة تلتهم عيناها صفحات المجلات ، وتستوقفها اني قرأت العبارات المبكية والألحان الحزينة ؛ فتستظهرها وتطمئن لها ، وترددها حتى تعيش في الجو الذي ترسمه تلك الابيات . ولا ادري لمَ كانت للموسيقى الحزينة هذه المكانة في قلبي ، ولم كان للابيات الناطقة بالألم الراسي في قرارة النفس هذا التأثير فيّ .

ومرت الايام ، فلم نعد نلمح لأبي القاسم الشابي ، شهيد النشاط والاخلاص للأدب ، مقطوعة في مجلة ! ولم نعد نقرأ كلمة فيه للذكرى . ذاك لان الشاعر الخالد الذي واكبه تنكر الزمان له في حياته القصيرة ، ما زال حتى اليوم ، يعاني الكثير من آلام هذا التنكر ، ويتألم لهذا الجحود تقابل به اعماله الخالدة .

ها قد مرت على وفاة الشابي تسع عشرة سنة ، ولم ينشر بعد على الشباب العربي اثر من آثار هذا الشاعر الفذ ، فمخلفاته ما تزال مطوية تتعرض في كل يوم لنسيان جديد ، وكلومه ما تزال تنزف دماً ، ولم يحاول بعد واحد منا ان يعرف مواطن هذا الألم ، ليخفف عن القلب الكبير بعض ما يعذبه ويلهب آلامه . ان روح الشاعر في عليائها ما تزال تتأوه وانها في الجو الشعري السماوي الذي تسبح فيه ، ما تزال تتألم ، ولعلها تردد ساعة تنظر الى الارض الجميلة التي احبها الشاعر بكل ما اوتي من قوى : « ما اعقك ايها الانسان ! »

ولد الشابي في تونس وفي ناحية جميلة من ارحب نواحيها واجملها ، تلك هي بلاد الجريد . ونشأ الشاعر وترعرع ، ونفسه الرقيقة يتملكها حبان عنيفان : هما حبه لتونس الخضراء الجميلة وحبه للعلم والمعرفة . وعاش سنوانه القليلة المترعة بالاحزان ، موزع القلب بين حب تونس وحب العلم والتحصيل ، فانكب على الاطلاع يغرف منه بنهم ، غير مكترث باعصاب تتعرض للارهاق ، وبفؤاد تثخن جراحه الصدمات العنيفة . وعرف ان حبه لتونس ان لم يكن مبنياً على العلم والمعرفة ، وهادفاً الى رفع مستوى شعبها ، هو حب غير مجدٍ ، ولذا فقد كان شعاره في حبه لبلاده الجهاد المتواصل ، لكن الشعب التونسي مكبل باغلال الاستعمار وباغلال غيرها هي اشد خطورة وآلم لنفس الشاعر المفكر ، لانها اغلال معنوية بعيدة الاثر في حياة الامم ، الا وهي اغلال الجهل والفقر والتقاليد البالية والمعتقدات الرجعية .

وأقدم الشاعر متجنداً للجهاد ، وسلاحه فكر نيّر ونفس منفتحة وشاعرية خلاقة مبدعة ، وثقافة عالية ترسبت فيها ثقافات عديدة .

لم يكن الشابي يتقن لغة اجنبية ، لكنه كان يقرأ كل ما يترجم عن ادب الغرب ويتأثر به الى ابعد حد ، ولم يكن الشابي يعرف الرحمة بنفسه ، ولذا فقد كان يرهقها بالسهر والعمل المستمر ، سعياً وراء المعرفة وتغذية لنفس ثائرة القابلية الى المزيد من الغذاء الروحي .

ولشد ما كان الشابي يتحسر ويتألم حين كان يرى الشعب التونسي مفكك الاوصال يتنكر للجديد في الأدب ، ويثور ثورة تقليدية رجعية الأسس في وجه كل جهاد يذكيه الشباب

الخلاق في عزائمه وطموحه .

ويتطلع بعد ذلك ليرى المجاهدين من اخوانه يصار بهم الى الموت او الى ظلمات السجون ، كلما قام منهم مطالب بحق او ثائر في وجه ظلم ! فيبكي شاعرنا ذو القلب النابض والنفس الكريمة ، لا بكاء تقليدياً عرفه شعراء العرب منذ القدم ، ساعة كانوا يقفون على الاطلال ، بل بكاء الكرام الذين جدت في طلبهم المحن ! وهو اذ يخاطب تونس الجميلة يقول :

لست ابكي لعسف ليل طويل ... او لربع غدا العفاء مراحه
انما عبرتي لخطب ثقيل ... قد عرانا ولم نجد من ازاحه
كلما قام في البلاد خطيب ... موقظ شعبه يريد صلاحه
اخمدوا صوته الالهيّ بالعسف
اماتوا صداحه ونواحه
البسوا روحه قميص اضطهاد
فاتك شائك يرد جماحه

وشديد على النفس العزيزة ان تتحمل الضيم والا يكون لديها من وسائل المقاومة ما تملك به الدفاع عن نفسها .

كان الشاعر ما يزال غض الاهاب عندما كان يرسل نفثاته الملتهبة ناطقة بالشكوى زاخرة بالحسرات ، علّه يحرك في النفوس تيار الثورة ليعود فيقول :

انا يا تونس الجميلة في لجّ الهوى
قد سبحت اي سباحة
شرعتي حبك العميق واني
قد تذوقت مرّه وقراحه
لا ابالي وان اريقت دمائي ... فدماء العشاق دوماً مباحة

لقد احب الشاعر بلاده حباً اراد به لو يستطيع ان يجعلها تحيا ابية ، واحبها ليمزق بحبه ستائر الاوهام التي كانت تحجب عنها انوار الحقيقة ، واراد لها حياة سعيدة عزيزة فاصطدم بالعقبات . وكان في جهاده المستمر يتعرض للصدمات العنيفة فيستسلم للقنوط والخيبة ، وتتراءى له عرائس الشعر متشحة بالسواد ، فتغمر نفسه الفتية موجة من الحزن العميق ويسترسل قائلاً : ليت شعري
اي طير
يسمع الاحزان تبكي ... بين احشاء الكئيب
ثم لا يتلو على الفجر ... اغاريد النجيب
بخشوع واكتئاب

كانت حياة الشابي على قصرها ، منتجة مثمرة فياضة بالآلام زاخرة بالحيوية ! ونحن اذ نحاول ان ندرس شاعراً حالت المنون الغاشمة بيننا وبينه ، كما حال بعد الديار ونأيها بيننا وبين الوقوف على آثار ادباء المغرب العربي المجاهد ، نود لو كان لدينا من آثار الشاعر الادبية ما يشبع رغبتنا في معرفته في مختلف الوان انتاجه ، فنسبر غور تلك النفس التي كفنتها الآلام وصهرها العذاب المبرح والارق المميت ...

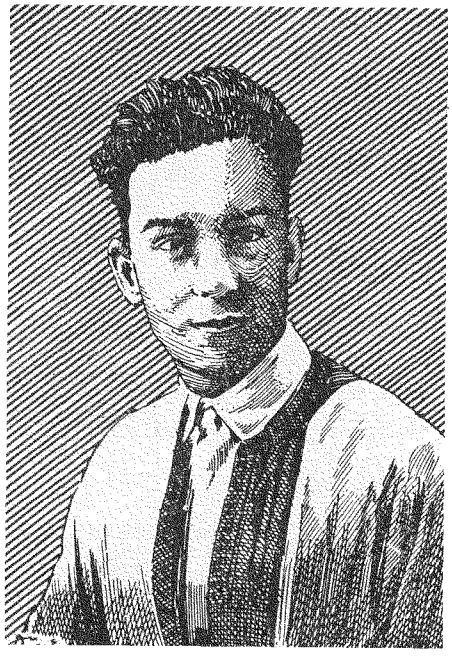
ابو القاسم الشابي

ان كل ما لدينا من مراجع هو الكتاب القيم الذي اصدره مؤخراً الاستاذ الاديب ابو القاسم محمد كرو ، وفيه لمحة عن حياة الشاعر ومجموعة من قصائده قسمها المؤلف الى قسمين فضمن القسم الاول منها ، الاشعار التي نظمها الشاعر قبل العشرين من عمره ، وفيها ما فيها من التحرق والزفرات ، ومن موجات اليأس ونفحات القنوط ، ولا غرو فالشاعر شاب في مقتبل العمر ، تأثر بالمدرسة الرومانطيقية تأثراً بعيداً ، فألفت بينه وبين لامرتين وشائج شتى اهمها الارزاء المتشابهة ، والاطمئنان الى الوحدة وموت الحبيب وحب الوطن والثقة بالطبيعة ! كما تضمن القسم الثاني من الكتاب ، الاشعار التي نظمها الشاعر بعد العشرين من عمره ، وهي بعض نتاج الشاعر الادبي للسنوات الخمس الاخيرة من حياته القصيرة .

ان شعر الشابي بمجموعة شعر غني بالموسيقى رائع بصوره ومعانيه . تقرأه فتسبح مع الشاعر في اجواء كلها آهات اعواد محطمة وهديل حمام باك وانين قلب عصره الاسى ومزق ثناياه الالم الشديد . فهو يملأ اذنيك بالشكوى ويريك الحياة في صور قاتمة ملتاعة تقضي على آمالك وتدمي مشاعرك وفؤادك ، لكنك تحس انه صادق فيما يقول فتطرب لموسيقى نواحه ، وتشعر انه

متألم حقاً فترثي لنفس معذبة احرقتها شدة الآلام . وتصيخ اليه بكل جوارحك وهو يقول بصوت ابح .

صاح ان الحياة انشودة الحزن فرتل على الحياة نحيبي
ان كأس الحياة مترعة بالدمع فاسكب على الحياة صبيبي
ان وادي الظلام يطفح بالهول ، فما ابعد ابتسام القلوب
لا يغرنك ابتسام بني الارض فخلف الشعاع لذع اللهيب
انت تدري ان الحياة قطوب وخطوب ، فما حياة القطوب؟
ان في غيبة الدهور تباعاً ، لخطيباً يمر اثر خطيب

ورغم انني لا اقر الشاعر في نظرته الى الحياة ، ولا اومن بفلسفته هذه ، لانني أمقت الضعف واليأس ، واعتقد مخلصة ان بذور الرومانطيقية الباكية قد افسدت نفوس الناشئة ، وسيّرتها في طريق الانحلال الفكري حين طبعت الادب بهذا اللون القاتم وحولته الى نشيج ودموع وآهات ولوعات ، رغم هذا كله أراني آنس لشكوى الشابي ، واطرب لسماع شعره نظراً لما فيه من تحليل لتلك النفس المضطرمة التي تغنت بجمال القبور وزهدت في حياة الناس لانها ملوثة تفوح منها روائح الآثام .

ان الشابي كما قلنا قد تأثر كل التأثر بالمدرسة الرومانطيقية . والحقبة التي عاش فيها الشاعر هي الحقبة التي كان الادب العربي فيها يحاول ان ينفلت من قيود التزامية عرفها في العهد العثماني لينطلق في آفاق جديدة حرة ، ويشق له بين الآداب المعاصرة طريقاً سوياً .

أعجب الشاعر بادب المهجر ، ونهل منه كل ما وصل اليه من ادب جبران ونعيمة وابي ماضي والقروي . وتأثر الشاعر بالادب المهجري بادٍ في اسلوبه في النظم والنثر وفي طريقة تعبيره ! لقد تأثر نثر الشاعر باسلوب جبران وبعض نظراته الى الحياة . وجمعت بينه وبين القروي النقمة على المستعمر ، ولكنه بقي بمنأى عن التأثر بنظرة ابي ماضي الى الحياة . ففي حين كان ابو ماضي يدعو الى التفاؤل والضحك ، ويقول لصاحبه المتشائم :

اضحك فان الشهب تضحك والدجى متلاطم ولذا نحب الانجما

كان الشابي يقول :

كن كما كانت السماء كئيبا ... اي شيء يسر نفس الاديب
انفوس تموت شاخصة بالهول ... في ظلمة القنوط العصيب
ام قلوب محطمات على ساحل لج ... الأسى بموج الخطوب
انما الناس في الحياة طيور ... قد رماها القضا بواد رهيب
يعصف الهول في جوانبه السود ... فيقضي على صدى العندليب

حياة الشابي كما ذكرنا حياة خصبة منتجة ، تفتحت عن شاعرية مبدعة ألفت جوقاتها عرائس الشعر وربات الحسن والفصاحة ! ولو ان القدر كان رحيماً ، فلم يتصدّ للشباب الغضّ ، ولم يسكت القيثارة الشجية ، لكان اللحن الذي بدأه الشابي قد تم ، ولكان الادب العربي الحديث قد خصص للشابي صفحات كبيرة في سجل الخالدين ، ولكان الشابي الشاب الذي بكى كثيراً وناح بقلب هالته الآلام قد رجع عن نظرته الواجفة الى الحياة ، بعد ان وعى التيارات الفكرية الخطيرة فقاد بعزم صفوف المناضلين في سبيل الادب ، وشهد بعينه بلاده الحبيبة الى قلبه تهب للجهاد ، وتنتظم صفوف ابنائها عاملة بما دعا اليه شاعرها الخالد ابو القاسم .

هذه الحياة القليلة سنواتها ، حافلة بالانتاج الادبي فصولها ، والشابي في كل مراحلها شخصية نيرة يتفجر الشعر عذباً سلسبيلاً من حناياها وتلافيفها . فهو في مستهل حياته طالب في الكتاتيب في بلدته الشابية يحرص ابوه على تحفيظه القرآن الكريم . ويتم الشاعر حفظ القرآن في التاسعة من عمره لينصرف بعد ذلك الى درس اللغة العربية بآدابها وفلسفتها منكباً على المطالعة والتحصيل ونظم الشعر . وتتفتح براعم عبقريته وهو ما يزال يافعاً يطلب العلم في احدى كليات العاصمة ويؤلف مع رفاقه الجمعيات الأدبية والمنظمات التي تهدف الى اصلاح مناهج التعليم والادارة في الكلية .

ولئن تتبعنا المراحل التي مرت بها عبقرية الشاعر متأثرة بالاحداث التي طبعت نفسه باللون الحزين الذي تميز به وهو ما يزال في شرخ الصبا وفجر الشباب لوجدناها اربعاً كان لكل منها تأثيرها الخاص في انتاجه واذكاء نيران الاحزان في قلبه المعذب الذي عصره الأسى الطويل فسال ادمعاً وابياتاً شجية .

فاما المرحلتان الاوليان فهما اللتان شهدتا الشاعر تلميذاً جاداً منكباً على التحصيل تتفتح براعم الحياة في نفسه الحرة ويجيش قلبه المرهف الشعور بفيض من الأحاسيس المختلفة كان يضرم سعيرها شباب متيقظ ونفس تواقة الى مرأى الجمال والانعتاق في اجواء الحرية . ثم نراه بعد ذلك خريجاً لامعاً لاحدى كليات العاصمة التونسية يقبل على الحياة بنهم ، ويرتل صلوات الحب في هيكل حوائه الخالدة ، متعرضاً تارة للأزمات النفسية الناشئة عن ظروف مادية ، وطوراً لهزات مريرة من

(البقية على الصفحة ٦٤)

ابو القاسم الشابي البقية من الصفحة ٣٢

الحبيبة، كانت تصيبه كلما اصطدم باحدى العقبات في حبه او في مساعيه النضالية التحررية .

وفي هاتين المرحلتين بدا تأثر الشاعر بالآداب المعاصرة ولا سيما المهجري منها ، في اقوى مظاهره وابرز صوره. فهو اديب ناشىء ذو شاعرية ملتهبة تنساب انغاماً رقيقة وتحاول ان تشق لها بين الخالدين طريقاً ، عاملة على تكوين شخصيتها المستقلة بما اوتيت من الهام وبيان ، يمدهما الخيال الجميل بحلو اللوحات وفتان الالوان .

وفي هاتين المرحلتين انشد الشاعر حلو ابياته ثائراً على ظلم المستعمر باكياً لخطب تونس الرازحة في الاغلال ، يصرخ في وجه الظلم النازل بالتونسيين بابيات تعيد الى ذاكرتنا قصائد الشاعر القروي في ديوانه الملتهب ، الاعاصير .

ثم نسمع الشابي بعد ذلك يتأوه ويتألم. وتنتشر غيوم القنوط الكثيفة حول قلبه الواجف المعنى فيقول :

سئمت الحياة وما في الحياة ولما تجاوزت فجر الشباب
سئمت الليالي واوجاعها وما شعشعت من رحيق بصاب
فحطمت كأسي والقيتها بوادي الاسى وجحيم العذاب

هذه الفلسفة اليائسة اتلفت جراثيمها قلب الشابي ، وهو بعد في فجر الشباب وريق العمر ! وعلام اليأس والتشاؤم الى هذا الحد ، واعمارنا على مسرح الحياة اقصر من ان نفنيها في القنوط والبكاء ؟ ! ان الشباب عزيمة وامل، وايمان بالقيم الانسانية وعمل على السمو بها ! وهو في نظري تحرر من الخوف وتغلب على الآلام . ونضال اوسع لا يقف في افق معين من الآفاق !

ولكن ما يبرر في نظري احزان الشاعر انه كان ما يزال في سن تسمح للمؤثرات ان تعمل عملها في النفس ، ولذا رأيناه خريجاً لامعاً للمدرسة الرومنطيقية الباكية ، كما كتب له ان يصادف في حياته من الهموم ما جعل الهواء الذي يتنفسه هواء آسناً مثقلاً بالمكروب .

ثم تدخل حياة الشاعر في مرحلة ثالثة يصاب فيها بفقد ابيه الذي كان قاضياً لاحدى المحاكم الشرعية ، يمده بالمعونة ويحمل عنه اعباء الاسرة وتكاليف حياتها ، فتكون وفاة الاب صدمة عنيفة تصيب النفس المكلومة ، فتزداد هموم الشاعر ويعرف عندئذ عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه ، ويجد في العمل لاعالة اسرة كبيرة فيتذوق ثانية الوان المتاعب .

ان ابا القاسم لم يرث احداً في حياته لأنه كان يعاف هذا اللون من الشعر ويستنكر ان يكون الشعر اداة امتداح او رثاء . ولذلك فقد خلت اشعاره من قصيدة في رثاء ابيه . وفي هذه المرحلة نفسها نرى غزل الشاعر غزلاً باكياً لأنه الغزل الذي افتقد فيه حبيبته التي صلى في هيكل حبها زمنا .

ان قصائد الشابي الغزلية ناطقة بالحسرة تفيض لوعة على الحبيبة التي غادرته الى الابد . وكأنما هذا القلب الذي نسجت خلاياه الدموع ، كتب له لا يعرف في الحياة الا نوعا واحداً من الوانها واعني به الاحتراق في اتون الآلام . لقد بحث الشاعر عن السعادة فلم تكن في نظره الا حلماً ، ولكن هذا الحلم قد تحقق يوماً عندما وجد السعادة في الحبيبة . غير ان الموت الجائر اختطف من الشاعر حبيبته ليفتح في قلبه جراحاً جديدة فراح يقول :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة
واليوم قد امست كاعماق الكهوف الواجمة

وبعد ان يحدثنا عن حلم السعادة الذي حققه له قرب حبيبته منه راح يتحرق بعد موتها ويشكو بحسرة ولوعة :

ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الغيوم
حيث العذارى الخالدات يمسن ما بين النجوم
ثم اختفت اواه طائرة باجنحة المنون
نحو السماء وها انا في الارض تمثال الشجون

وفي المرحلة الرابعة من هذه الحياة الزاخرة بالشجون ، يصاب الشاعر بمرض خبيث يسببه الارهاق والتعب المستمر الذي انهك اعصابه .

ويعرف الاطباء في مرضه هذا تضخم القلب ، فيشيرون عليه بترك المدن والابتعاد عن المطالعة والاعمال الذهنية المرهقة واللجوء الى الطبيعة حيث تهدأ الحياة ويصفو الجو في القرى البعيدة عن ضوضاء المدن .

ومرحلة المرض هذه ، هي المرحلة التي مكنت جذور اليأس في قلب الشاعر . ولم يكن ليستطيع ان ينصرف عن ارسال الانغام المبكية فراح يتغنى بجمال الغاب ويبثه ما في خاطره من افكار سود ، ويودع الشعب ناقماً عليه مرتلاً آيات الموت ضاحكاً لهمس القبور .

وكأنه كان يدرك ان الموت كان يعد له اكفاناً خالدة ، فلم يرهبه ، بل راح يناديه ويتعجله لينقذه من هذا العالم الموبوء الطافح بالآلام والشرور :

اما إذا خمدت حياتي وانقضى عمري واخرست المنية نائي
وخبا لهيب الكون في قلبي الذي قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فانا السعيد بانني متحول عن عالم الآثام والبغضاء
لأذوب في فجر الجمال السرمدي وارتوي من منهل الاضواء

واخذ يبتسم للشاعر ويقترب منه رويداً رويداً ، والشاعر آنسٌ به يمد ذراعيه للقائه ؛ وساعة شعر باقتراب الاجل ، رأى نفسه يدخل عالماً جديداً فيغرق في صباح من النور فصرخ يقول :

اسكتي يا جراح واسكني يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
واطلّ الصباح من وراء القرون

وودع الشاعر دنياه غير آسف عليها وارتقى زورق الخلود سائراً في خضم الموت ويداه تلوحان للهموم ، ولسانه يرسل آيات الوداع :

الوداع الوداع يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي في الخضم العظيم
ونشرت القلاع فالوداع الوداع

وانطفأت هذه الشعلة الشعرية في عام ١٩٣٤ بعد ان ملأت الاجواء انغاماً شجية فياضة باللوعة والاسى .

ومهما قيل في شعر الشابي ، فان احداً لن يستطيع ان يفيه حقه من الدرس ، ما دام القسم الكبير منه لم ينشر بعد . ان الشابي كان لوناً جديداً في الشعر العربي الحديث ، وكان ثورة على الشعر القديم . فاض شعره موسيقى مبكية واغاريد حزينة . وإذا كان الشعر الصادق هو ما صوّر النفس فانعكست عليه خفاياها ونزعاتها فكان مرآة صادقة التعبير لأدق الخلجات ، فما كان اشعر الشابي إذن وما كان اصدقه عندما حلل نفسه بنفسه فقال :

انت يا شعر صفحة من حياتي انت يا شعر قصة من وجودي
انت ياشعر إن فرحت اغاريدي وان رنت الكآبة عودي
انت يا شعر كأس خمر جميل اتلهى بها خلال اللحود
اتحسّاه في الصباح لأنسى ما تقضى في امسي المفقود
واناجيه في المساء لأهو بحميّاه عن ظلام الوجود
انا لولاك لم اطق عنت الدهر ولا فرقة الصباح البعيد

بيروت — **سعاد ابو شقرا**

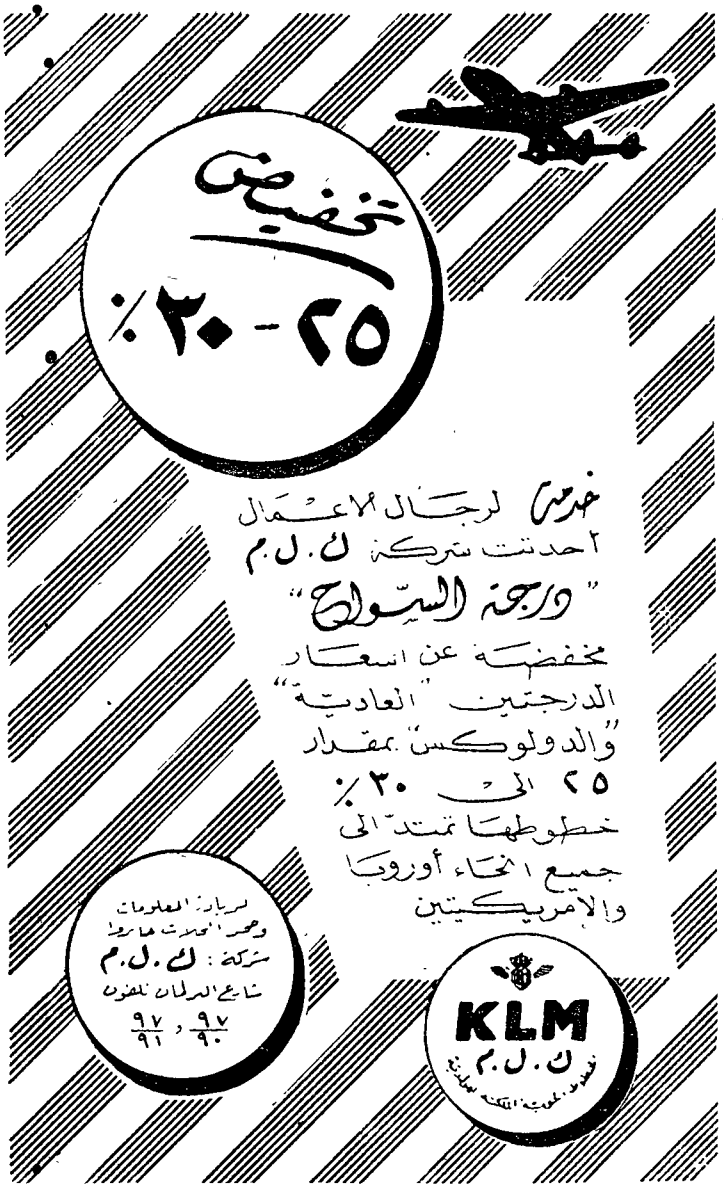

صدر حديثاً

الكتاب الأول من سلسلة « كنوز القصص الانساني العالمي »
التي تترقبها الفئات الواعية

كوخ العم توم

للكاتبة الاميركية هارييت بيتشر ستاو
وهي الرواية الانسانية التي تصور حياة الزنوج في اميركا والتي
ادى نشرها الى نشوب الحرب الأهلية بين ولايات الجنوب
وولايات الشمال على عهد الرئيس لنكولن
نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

٣٠٠ صفحة على ورق ممتاز — دار العلم للملايين